الكتاب الجديد

نحو اشتراكية عربية

تأليف كلوفيس مقصود

دار منيمنة للطباعة والنشر ، بيروت ـ ١٥٧ ص

*

بوسعنا القول اننا ههنا امام كتاب قيم بكل معنى الكلمة. فهو قيم بعمق أفكاره ، قيم باسلوب بحثه المنطقي ، وقيم بأهمية موضوعه بالنسبة الى مرحلة التطور الاجتماعي التي وصل اليها العرب . ولعله من الكتب النادرة التي تتناول قضايا القومية العربية بالعقل دون العاطفة ، وتعتمد الفكر العلمي والمنطق بدلا من التفكير العاطفي ولغة الشعر والخيال.

كما يمكن ان يفهم من عنوان الكتاب ، يرمي المؤلف الى بناء اشتراكية عربية تنبع من مقومات الوطن العربي ، او على حد تعبيره ، الى « القاء ضوء على بعض المقومات المنهجية في الاشتراكية » لكي يسهم في انشاء « اشتراكية عربية تتصف بالعمق والعلم والفهم الدقيق لطبيعة مشكلة الانسان ، والمرحلة القومية التي تعيشها الامة العربية في تطورها الحديث . »

والذي دفع بالمؤلف الى تحديد هذا الغرض لكتابه ، هو جلاء مفهوم الاشتراكية مما يشوبه عند غالبية الناس في العالم العربي من تشويش وخطأ وسطحية، اذ ان « الكثيرين ـ كما يقول في المقدمة ـ ما يزالون يرون في الاشتراكية « حلا وسطا » بين الرأسمالية والشيوعية ، او يعتبرونها مجرد محاولة اصلاحية لتحسين الاوضاع الاقتصادية في المجتمع » . كما ان « الاشتراكية ما تزال حتى الان ، تعتبر في نظر العديد من المفكرين عقيدة عالمية تتنافى واوضاع الامم الخاصة ومشكلاتها القومية » ، في حين ان الاشتراكية كما يعتقد المؤلف بحق «ليست مجرد عملية اصلاح اقتصادي بل هي تتعدى ذلك الى نطاق النظرة الشاملة للحياة والى الحلول النظرية والعملية لمشكلات المجتمع والانسان » ، وانها **« على الرغم من مقوماتها الانسانية العامة ، الناتجة عن وحدة مشكلة الانسان ، مفهوم يتأثر بتجربة الامة الخاصة ومشاكلها المتميزة »** .

من هذا تتضح معالم القيمة العلمية لهذا الكتاب. اذ ان ابرز ما تبرز فيه هذه القيمة هذه الطريقة التي تعتمد البدء في تناول المفاهيم وتبيان صحيحها متميزا من خطئها الذي قد يستقر في بعض الاذهان . انها طريقة البدء من الاساس، وهي امثل طريقة لانشاء البنيان المتين . وبنوع خاص ، انها اقوم طريقة لمعالجة قضايا المجتمع العربي ، لان معظم هذه القضايا ناشئة ـ كما اثبتت غير مرة في ابحاث خاصة ـ عن الخطأ في تمثل المفاهيم الاساسية للحياة الاجتماعية الحديثة .

وهكذا نرى المؤلف يأخذ في تحليل مفهومي التطور والثورة ، ومفهومي العقيدة والاتجاه او التيار ، ومفهوم الوجود القومي العربي ونحوه ، وذلك بغية تحديد الكلمة، لان « الكلمة كوسيلة للتعبير عن فكرة تكون مسؤولة بقدر ما تكون الفكرة واضحة عند الذي يستعملها ، ولكن عندما لا يسبق نطق الكلمة وضوح الفكرة تصبح الكلمة اداة للابهام ودعوة الى الفوضى في المفاهيم والمقاييس وبالتالي ابتعادا خطيرا عن الحقيقة » .

فاما التطور والثورة فالمؤلف يحدد الفرق والعلاقة بينهما، مؤكدا ان الثورة ليست النهج العكسي للتطور بل الانتفاضة الموقتة الموضعية التي تدفع بالتطور في طريق السرعة ، اي انها من صميمه ، تخضع لاحكامه ، وتحمي طبيعته ، كما انها لا ترتبط بالعنف كصفة ملازمة لها ، لان العنف نوع من التصرف العملي ، ومن شأن هذا الربط ان يحصر فعاليتها في المجال السياسي العملي ، في حين انها تتخطى هذا التحديد الى معاني الدرس والتنقيب وكيفية التنفيذ. ويؤكد المؤلف ان هذا لربط يشكل مغالطة يلجأ اليها الرجعيون للطعن في التطوير من خلال الناحية الثورية الكامنة فيه دون ان يتعرضوا الى اي انتقاص من ادعائهم الكاذب بتبني التطور بدلا من الثورة اسلوبا للعمل ووسيلة للتقدم .

واذ يلاحظ المؤلف تكاثر المحاولات الفكرية والسياسية في البلاد العربية لتجسيد الافكار والاتجاهات التقدمية وفعلها في المجتمع العربي ، يعمد الى التفريق بين العقيدة وبين الاتجاه او التيار ، فيؤكد ان « العقيدة هي نهاية المطاف الفكري لما يسمى الاتجاه او التيار ، وهي التجسيد النظري الفلسفي للاختبارات التي مر فيها الاتجاه او التيار»، اي انها نتيجة التفاعل الاختباري بين الاتجاه ومستلزمات المجتمع ،

بحيث « ان الحكم على عقيدة ما ، فيما اذا كانت تطورية ام لا ، يجب ان يكون مبنيا على مدى قدرة هذه العقيدة على تطوير مجتمع ما ، لا على نجاحها في حل مشاكل مجتمع اخر . »

وهنا يتساءل المؤلف عن المرحلة التي وصلت اليها الامة العربية وهل هي مرحلة تفرض تبني عقيدة فلسفية معينة، ام هي تستلزم تبني اتجاه معين يتفاعل ويدخر لذاته اختبارا يمكنه من بلورة ذاته في نظرة فلسفية شاملة ؟ ولكي يجيب على هذا السؤال يتناول الوجود القومي العربي ، فيلاحظ انه واجه، علاوة على الاستعمار، تحديا وانكارا له من الداخل بحيث نتج عن ذلك وعي متأجج جعل امكانات هذا الوجود القومي تتخطى مهمة التفتيش عن « اطار عقائدي فلسفي » الى التفتح « على سائر تشعبات الحضارة المعاصرة والغابرة» وهنا يهاجم المؤلف الاتجاهات الانعزالية بشتى الوانها ، مؤكدا ان « القومية العربية تحمل بذور التجديد الاجتماعي والفكري » ، وان الثورة الفكرية المتمثلة اليوم في التيار التحرري القائم على مثلث الوحدة والتحرر والاشتراكية الذي يكافح مثلث التجزئة والاستعمار والرجعية هي دليل واضح على حيوية كامنة في امتنا ، كما يبين ان مرحلة التطور التي وصل اليها العرب هي « ان الشعب العربي بمعركته مع المثلث العدائي لا يبني شخصية عربية مسؤولة فقط ، ولكنه يبني للعالم امة مسؤولة » .

وكما يلمس القارىء ، يسيطر على مباحث هذا الكتاب الطابع النظري . وقد يكون هذا الطابع مدعاة لنقد بعض الناس ولومهم ، او باعثا على شيء من التعقيد في بعض الاحيان . ولكني اعتقد ان هذا الطابع هو الطابع السليم الخاص بكل بحث يتناول امر وضع الاسس للبناء في المجال القومي ، وهو امر جد خطير ، فالبحث النظري ، بتميزه من البحث التطبيقي السطحي المقتصر على بعض الشؤون الآنية القريبة ، ومن البحث الخيالي العاطفي كذلك ، هو على الدوام الطريق السوي الى وضع الدعائم المثلى للتنفيذ والبناء .

والفكرة الرئيسية عند المؤلف هي ان الاشتراكية في الامة العربية هي من صميم الحركة القومية ، اذ ان القومية في الاقطار العربية ، تتمثل في العمل لاسترجاع حقوق سلبها الاستعمار وبناء وحدة هي عنوان وجود العرب الانساني وشرط هذا الوجود الاساسي . واعلان سياسة الحياد الايجابي هو في نظره مما جعل الحركة الاشتراكية في طليعة الحركات النضالية للوحدة والتحرر في الامة العربية واذ يرى المؤلف ان القومية العربية والعمل لتحقيقها في التحرر والوحدة من صلب العمل الاشتراكي العربي ، يتناول بالنقد وضع لبنان وما يعتوره من قسمة طائفية هي اساس لكيان الدولة فيه ، ومن تكوين طبقي فريد في نوعه من حيث خلوه من « الاشحاذ » الذي من شأنه توليد الوعي الطبقي ، ويطالب « بشخصية اشتراكية للبنان لا لكي يتحقق للبنانيين مجتمع المساواة والسعادة فقط ، بل لكي تظهر لهم حقيقة شخصيتهم العربية وحقيقة مصيرهم العربي . »

هذه كلمة قصيرة في كتاب « نحو اشتراكية عربية » قد لا تفي بما يستأهله من بحث مستفيض ، ولكنها تمثل في الواقع دعوة الى قراءته . ولعل ما بهذا الكتاب ، علاوة على روحه العلمية ، من ربط بين الحركة القومية العربية وبين الاشتراكية ، قمين باضفاء طابع اصيل عليه ، وجعله كتابا من الكتب الفريدة التي يكون لها شأن عند الباحثين في شؤون القومية العربية .

محمد وهبي

مشروع نظرية في التكوين الشعري

تأليف ـ خيري الضامن

منشورات عويدات ـ بيروت ـ ١١٦ صفحة

*

مما يسر حقا ان نرى اديبا عراقيا شابا يتخطى الحدود الاقليمية الضيقة ويبرز حصيلة تفكيره الناضجة ويضعها امام ادباء العربية وقرائها .

ويبدو لنا من مقدمة الاستاذ الضامن انه شديد الثقة بنفسه الى حد القول (١) « ان هذه المحاولة تعيد للشعر قيمته الحقة وتضعه حيث يجب ان يكون » او عندما يقول (٢) « وتشمل هذه المحاولة عرضا جيدا للفلسفة اليونانية بادوارها المتعددة ... الخ » واننا اذ نضع خطوطا حمراء غليظة تحت كلمات وجمل « تعيد للشعر قيمته » و « عرضا جيدا » نحاول تحليل الكتاب ومناقشته على ضوء ما عندنا وما نعرفه .

نجد الاستاذ الضامن ينفي وجود دراسة لكاتب عربي « تبرهن على ان الاساطير ما هي الا تضخيمات ومبالغات بكثير من التحوير والتغطية لوقائع وماجريات حياتية .. »(٣) ويحاول ان يثبت ان بحثه هذا هو الاول من نوعه في العربية. ونحن اذ نقدر هذه الثقة نرشد الاستاذ الضامن الى بحث وضعه العالم الاثاري العربي الاستاذ طه باقر بعنوان « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » (٤) ، وان كان بحث الاستاذ مسوفا بتكنيك علمي تاريخي فان بحثه الخاص بالادب تتوفر فيه الروحية اللازمة له واذا علمنا ان الاستاذ باقر يقول في مقدمة كتابه « ان التاريخ ادب في عرضه علم في بحثه » لادركنا ان محاولة الضامن ليست الاولى في العربية . وفي فصل « مشروع نظرية في التكوين الشعري » نجد الاستاذ الضامن يعرف التاريخية في ص ٢٧ بانها « عيش زمانية الموضوع على حساب اضمحلال مكانيته » فالتاريخ لا يدرس الحادثة مجزأة ولا يفصل بين الزمان والمكان لان كلا منهما مرتبط تمام الارتباط بالاخر وهو يشد ما بينهما ليجعل حركة الانسانية الدافعة ، محصلة نافعة تثير الدرب وتدرك الوشائج التي توصل زمان الحادثة بمكانها وهنا اذكر رؤوس اقلام ثلاثة ولا اشرحها

---

١ ـ ص ١٢

٢ ـ ص ٢٢

٣ ـ ص ١٨

٤ ـ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ الجزء الاول الخاص بالعراق ، انظر ، فصل الاديان وفصل الادب البابلي

لتجنب الاستفاضة لان الموضوع طويل جدا ، اولها قضية ظهور السيد المسيح بين فئة معينة ومكان وزمان معينين وثانيهما ظهور النبي محمد وثالثهما ظهور الافكار التحررية القومية واشتداد اوارها في شرقنا العربي الان .

واننا في الوقت الذي نوافقه على شرحه للموضوع في الشعر ونشير الى تهربه من تحليل اختلافه عن المضمون ونؤيد الذات المتأثرة المؤثرة عند الشاعر ، نرفض ما يشجبه في الشاعر وما يحله فيه من مكنكة والية تجعلانه اشبه بالوعاء المربوط بالنواعير ما ان يجمع الماء حتى يفرغه دون اضفاء روحية ذاتية او ذوق احساسي متألق حيث يقول (ص ٢٩) : « وهنا في بحث الشعر يكون الموضوع المستجيب هو الشاعر بالذات ، هذه الالة التي ليس لها الفضل ، كل الفضل في ايجاد الشعر وتكوينه» ؟!

وعندما يتعرض المؤلف الى مسألة افراغ الاثر الفني يقول « ان الفنون الاخرى من غير الشعر تصدر عن نفس نقطة الانطلاق التي يصدر عنها الشعر فيحدث التباين شكليا في المراحل النهائية لعملية التكوين (٥) وهو امر صحيح الى حد كبير ، وعندما يتعرض الى اختلاف الافراد الفنانين في اشكالهم وقولبتهم الفنية نجده يصر على موت النطفة الفنية عند الاشخاص من غير الخلاقين والشيء الذي يمكن قوله هنا هو ان هذه النطفة تجد لها متنفسا طبيعيا عندما يقرأ حاملها ما يجول في شعوره ولا شعوره وهذا سر تحيز القاريء لكاتبه المفضل .

وهنا (٦) « تحدث اعادة للتجربة .. ان نقل التجربة لهذا المتذوق لا يكفي والمهم ان يتمثلها ... فقراءة الشعر اذن ما هي الا اعادة للتجربة الشعرية ، لان تمثل الفنون عامة يستند الى اجترار التجربة التي تتضمنها تلك الفنون اجترارا واعيا ايجابيا » ان هذا الاجترار الواعي الايجابي لا يصح ان يؤكد بكلمة « يجب » التي حذفتها من الفقرة فهي مطلقة ، وللنسبية دخل كبير هنا بحيث تجعل هذه اليجب مترجرجة لان المتذوق لا يكون ايجابيا مع الشكل الفني الا اذا كانت معدته الذهنية مضمخة .. بل مشحونة بتجارب من نفس نوع تجارب المفن نفسه ، وانا هنا لا انكر على الشاعر بالذات ، مقدرته في الاستحواذ على ذهن القاريء ان لم تكن التجربة متمرسة سابقا في ذهن الاخير، ولكني متأكد من ان الامر يحدث بمفعول اسرع فيما اذا كان الجو الفكري للقاريء مهيأ للتقبل من الوقت الذي يستغرقه الاثر الفني في محاولته لتهيئة القاريء غير الشاعر بنفس التجربة سابقا . ونجد ان المؤلف يقول في ص ٣٧ من فصل « افتعال الموضوع في الشعر » : « يكتب الشاعر الحق شعرا فيكون متأثرا بصورة ايجابية بالموضوع الباعث للشعر ، اما الشاعر البادىء فهو على العكس يكتب شعرا ولا يكون متأثرا اطلاقا بالموضوع الباعث للشعر » وانا هنا اشطب على كتمة اطلاقا هذه ، فالشاعر البادىء قد لا يبدأ ناظما بل شاعرا حقا وقد يكون الشاعر ناظما في بعض الاوقات عندما يعتصر ويفتعل تجربته بلا جدوى ، واذن فليست هناك قاعدة ثابتة لهذا الاطلاق.

اما محاولة الضامن لاثبات ان الشاعر قد ينسى افتعال تجربته نتيجة الحاحه عليها فنعتقد ان ذلك سيخلق سوء تفاهم ... ازمة بين المؤثر والمتأثر ـ كما يقول المؤلف ـ ولكنها ليست دائمة لانها تختلف باختلاف الاطار الفكري الذي يحمله القاريء وما يكنه للشاعر من قبل وما يتأبطه من ثقافة .

وما دام الضامن يركز على الشاعر البادىء وما دمنا نرفض تركيزه المطلق فاننا نتوقف قليلا في صفحة ٣٩ ونبتسم عندما نجد الضامن (يرقي) الشاعر البادىء الى رتبة شاعر حق وكأن الاحساس مراتب عسكرية . اما صاحب المؤلف وصديقه الذي شرح لنا عمليته المكنكية في رصفه اللفوي فهو ليس بشاعر ـ ان كان ما يقوله الضامن صحيحا ـ بل هو مختلق الفاظ ومرتبها على هيئة جدول ضرب ونحن نرفض هذا اللفو بشدة ونعتقد ان امثاله موجودون لكنهم لا يستطيعون فرض تجاربهم المفتعلة وبدعونها لا تتعرض لعوادي القراء المتذوقين والنقاد الذين يسلطون الاضواء الكشافة باحثين عن مقدار صدق التجربة .

اما تجربة السياب في قصيدته (الاسلحة والاطفال) فنعتقد انها لم تبدل الربيع الى شتاء كما فعل الاديب صديق الضامن ، ولكنها اتت بعد ارتطام قوي بين اصوات تجار الحديد المهتريء وتقبل الشاعر للمشكلة وتفكيره فيها فالموضوع خلق ولم يختلق والتجربة ـ على هذا ـ صحيحة، وما دمنا نثق كثيرا في تقنية السياب فلا شك ان اطار التجربة عنده وصدق الموضوع الذي استجاب له الشاعر بلا اختلاق وبكثير من الحماس والجو المهيىء ، قد جعل القصيدة ناجحة وذات استجابة عند المتأثر (القاريء) فنراه يردد مع السياب بالم وبحقد :

لك الويل من تاجر اشأم
ومن خائض في مسيل الدم
ومن جاهل ان ما يشتريه
ـ لدرء الطوى والردى عن بنيه ـ
قيود يوادون فيها بنيه
« حديد عتيق ، رصا .. ص ، حديد..
حديد عتيق لموت جديد .

ويقول المؤلف (ص ٤٥) : ويتنقل الشاعر من مشهد لمشهد ، وليس هناك رابط من التأثر الموضوعي ، انما ليس هناك غير الرابط المنطقي الصادر لا عن التأثر بل عن الفكرة .. » ونحن نقول ليس هناك تأثر موضوعي فالعملية الشعورية ـ علميا ـ لا تخرج عن نطاق الاحاسيس وانما كان التأثر ذاتيا انسانيا وقد ترابط الموضوع منطقيا هكذا : حديد عتيق .. اسلحة .. قتل .. رماد .. استعمار .. تونس .. كوريا مصير اطفال ابرياء .. وول ستريت .. الخ .

حدث عند الشاعر تداعي معاني خرج نتيجة القابلية الربطية عنده محكما يمثل فكرة مبنية على اساس من تأثر الشاعر بالمشكلة وليس عن طريق موضعتها ، وعلى هذا الاساس فاننا نرفض البناء النقدي الضامني هنا .

في الفصل التالي (القصة وحاضر الانسان) يفصل المؤلف الوعي الانساني عن الحيواني باتصاف الاول بالوعي الفعال ونفي هذه الصفة عند الزميل المخلوق .. الحيوان !

وان الوعي الفعال عند الانسان هو الذي يدفعه الى تأكيد ذاته بشتى الطرق والاستزادة والالحاف في ذلك ، والذي اعتقده ان الحيوان يميل ايضا الى تأكيد ذاته بشتى الطرق وانا افهم تأكيد الذات على اساس اشباع حاجة .. جنسية .. نفسية .. عضوية .. اجتماعية والفرق بين المخلوقين ان الانسان يميل الى تأكيد الابعاد الاربعة بينما الحيوان لا يكثر من تأكيد البعد الاجتماعي لان اناه مفقودة الا في حالة الاستثارة والمنافسة كما تحدث بين ذكرين من الحيوان على انثى وهذه مبعثها جنسي اكثر منه اجتماعيا وتنتهي بانتهاء او بسد الحاجة الجنسية. واذن فان الحيوان يميل الى تأكيد ذاته والى فعالية الوعي ايضا وعلى كل حال فانا اوافق المؤلف على ان فن القصة « هو الفن الوحيد الذي يجسم الشخصية

٥ ـ ص ٣٢
٦ ـ ص ٣٤

تجسيما امتداديا على نطاق واسع وان « اكثر الفنون ومن بينها الشعر تهتم اهتماما تجزيئيا بالشخصية الانسانية » ولكني اتحفظ فيما يختص بالقصص الشعري والميثولوجيا الشعرية في تقارب القصة في ميزتهاهذه.

وقد كنا نود لو اضاف على هذه العبارة الواردة في الصفحة ٥٤ : « ويمكن خلق وعي للحاضر الانساني من خلال الفنون جميعها ولكن ذلك الوعي يختلف قوة وضعفا باختلاف تلك الفنون » كلمة الفنان وركز عليها في تحليله للفكرة لاننا نعتبر شخصية الفنان وقابلياته ومقدار استجابة القاريء له ، اهم من فنه في احيان كثيرة ، نظرا للارهاص والايحاء المتوقعين منه بالنسبة لجماهير قرائه ، وعلى كل حال فاننا نؤيد النقطة التالية التي يؤطرها الضامن بوشيج متماسك من العبارة « ان القصاص لا يريد خلق وعي يتناول حاضر اولئك الاخرين على اعتبار فردياتهم وانما على اعتبارهم مثلا للنوع الانساني الكبير وعلى اعتبار القصاص ذاته داخلا ضمنهذا النوع الانسانيالكبير، فالوعي الذي يخلقه،اذن، وعي يتناولحاضر القصاصنفسه علىوجه او علىآخر» ص ٥٦ .وفي الفصلالتالي(هوميروس والميثولوجيا » يتكلم المؤلف عن الدين فيقول « لا ينكر ما تخلقه تلك الاديان من اساطير وخرافات تجمل غايات الدين ، اي دين ، ومفاهيمه الانسانية وغير الانسانية » ونحن هنا نشطب على المقطع الاخير « غير الانسانية » لان غايات الدين لا تستطيع ان تكون غير انسانية .. حتى اذا كانت سرا ، لانها مرتبطة بالانسان ولاجله اوجدت .

اما ان الدين عند القدماء قد خرج عن كونه تهجدا وتبتيلا فهذا صحيح ولكنه كان خارجا عن كونه هذا الشيء منذ البداية لان الانسان قد غلغله في واقع حياته لانه يحتاجه في كثير من الاوقات وقد صاحبت التهجدات ولوازمها الدين باعتبارها مظهرا سطحيا ـ في اكثر الاحيان ـ من مظاهره ـ وعلى وجه الخصوص في اديان ما قبل الكتاب ـ وقد استغلها الكهنة ورجال الدين لاغراض حياتية ليعتاشوا ويحظوا بالمكانة من ورائها .

وابرز دليل على تغلغل الدين في واقع الانسان « قديما وفي عهد الديانات غير السماوية » ان الانسان اليوناني والبابلي قد عكس ما يشعر به من تجمع وما يراه في مجتمعه من تنظيمات على الهته ، فاعتبرها منفذه عند الالهة ايضا وانها لم توجد على الارض الا لكونها وجدت في السماء ، فتصورهم على هيئة مجتمع فيه الكبير وفيه الصغير ولكل منهم وجائب ووظائف وما كان هذا الا عكسا لواقع الانسان ، اما بشأن الغيبيات غير العملية فهي تطمين لرغبات غير منفذة واقعيا .

اما بشأن هومير فان هناك من يشك بوحدانيته وهل ان المنسوب له من ادبيات يمثل تفكير شخص واحد ام اكثر ؟

وقد كنا نود لو تطرق المؤلف الى هذه النقطة وناقشها . اما ان سفوكليس قد عالج في مسرحياته واقعا بعيدا عن الالهة بعض الشيء نظرا لحصول تطور مجتمعي فهذا امر صحيح نوافق الضامن عليه تماما ولا نتحفظ في اعتبار الالياذة ـ مع المؤلف ـ « ادبا حقيقيا في الوجود .. يترفععن ان يكون هذيان محموم وخرفات مستوهم وغيبيات مغالط ادبا مطابقا للواقع » كما اعتبره ماثيو ارنولد .

ولكن الادب الكلاسيكي القديم لم يستطع « الخلاص من قيود المثالية التي فرضها الزمن قبل ميلاد ابن الانسان » .. ان هذا الادب قد ظل مستمرا على مثاليتهالتي كانت موجودة في الاوديسة والالياذة ، سوى انها مثالية تكره الحرب وتؤيد السلم ، وهذا امر فرضته طبيعة المجتمع الذي عاشه السيد المسيح .

وفي فصل (نظرية المعرفة عند السوفسطائيين)يؤكد المؤلف انالفلسفيات السابقة للفلسفة السوفسطائية كانت وقفا على مظاهر الكون وخصائصه والميتافيزيقيا وغيرها .. كل شيء عدا ابدع شيء في هذا الوجود .. الانسان ، فلم تهتم هذه الفلسفات به ، بينما ركز السوفسطائيون عليه وبذلك فقد كانت فلسفتهم رد فعل لما سبقها من فلسفة « عجزت عن الوصول الى غاية عقلية او سياسية او اجتماعية او دوخانية واحدة » واحسب ان نظرية توينبي في التاريخ الحضاري تطبق هنا وتعزز ما قاله الدكتور عبد الرحمن بدوي في تقسيمه لمراحل الفلسفة اليونانية الى اربعة اطوار اولها الطبيعية وثانيها السوفسطائية والسقراطية وثالثها الافلاطونية والارسطوطالسية ، ورابعها دور الركود الذي ينتهي ببداية الافلاطونية الحديثة . وبعد ان يشرح المؤلف الفرق بين الفلسفة الحية الايونية والفلسفة العقلية التي تعتبر الحواس غير كفؤ « لاداء الادراك الكامل للحقيقة والوجود » وتمدرس الفلسفة الاخيرة الى مدرستين اولاهما تؤمن بوحدة الوجود وثباته والاخرى بتطوره وتغيره ، يقول : « يكاد يتفق اكثر دراسي الفلسفة على العصر الذي جاء فيه السوفسطائيون يمثل عصر ازدهار فكري بالنسبة للتطور الفلسفي القديم » وهو امر ناخذه من الناحية النسبية ليس الا ، فاذا اعتبرنا فلسفات ما قبل السوفسطائية خامدة ، اعتبرنا السوفسطائية حركة باعثة تمثل ذلك العصر المزدهر ولكنا نميل الى الرأي القائل بان مجيء السوفسطائيين طبيعي الحدوث وانه لا يشكل ـ رغم قلبه لنظام التفكير ـ الا حلقة عقلية جديدة مردها الحركات الفلسفية السابقة التي تعبت في بحثها الكوني المتخلي عن الانسان ، ونعتبر الظروف قد اضحت مهيئة للبحث في الانسان نفسه بعد ان شبع الفلاسفة بحثا بغيره .

والذي يريحنا جدا ان يتصدى الاستاذ الضامن لشرح مسألة النسبية قديما وحديثا فيكشف عنها عند السوفسطائيين من خلال نظرية المعرفة، ويذكر انشتاين ونظريته النسبية الملتزمة للعلم اكثر من نظرية غاليلو المرتبطة بالفلسفة ، والذي يبدو لنا من خلال شرح المؤلف ان انشتاين يؤكد على الزمان بينما يركز غاليلو على المكان ، ولعل مرجع ذلك الى التطور العلمي الحاصل في عصر انشتاين والى تفكير غاليلو كرجل فلكي تلسكوبي ، ومن ثم يزاوج الاستاذ الضامن بين نظرية النسبية الموجودة عند الفيثاغورسيين الرياضيين والنسبية السوفسطائية ، وبعدها يتطرق الى تأكيد السوفسطائية على الروح الفردية في المجتمع فيصل بذلك الى نتيجتين : « النتيجة الاولى هي بروز النزعة الفردية بروزا جليا ، اما النتيجة الثانية فهي ارتفاع حالة الخلافات والنزاعات بين الافراد نتيجة للتعارض الفكري الجبري » (ص١١٢) مما دفع سقراط وافلاطون الى نقد السوفسطائية نقدا منهجيا منظما،والذينعتقدهناانالسوفسطائية النسبية توسع الاطار الفكري عند الانسان وتجعله ينظر الى الحقائق الماثلة امامه في لحظتها وزمنها ويدرك ان هناك الكثيرين ممن يؤمنون او لا يؤمنون بما يؤمن ، والسبب في ذلك راجع الى اختلاف منهج التفكير .. الاختلاف الذي تفرضه ظروف عقلية وبيئية وثقافية مختلفة . وهذه النقاط تستدعي بحثا خاصا عن السوفسطائية بالذات متى تيسرت الظروف لذلك، الا ان الذي لا شك فيه ـ بالنسبة لي ـ هو ان بحوث الاستاذ خيري الضامن هذه تستوجب التهنئة والشكران والتقدير للمجهود الذي بذله ، مما جعل كتابه ـ على صغره ـ مادة ثقافية دسمة .. مفيدة .

بغداد **باسم عبد الحميد حمودي**